الدرس الثامن : النظريات العاملية في التغير الاجتماعي

نظريات العامل الثقافي:

تختلف المجتمعات عن بعضها باختلاف الثقافة التي تميز بين الشعوب، كما أن الثقافة تختلف النظرة اليها، وتتعد تعاريفها.

فالأفكار والقيم والأيديولوجيا وغيرها تعتبر من ميكانيزمات التغير الاجتماعي عند القائلين بهذه النظرية ، ولما كانت النظرية تنشر لذا ، تعتبر سببا في تغير مجالات عديدة في المجتمع وفي غيره من المجتمعات الأخرى ، فحينما يتبنى مجتمع قيما معينة فإنها تؤثر في نظر أفراده نحو العلاقات الاجتماعية القائمة بينهم ، وفي اتجاهاتهم بشكل عام.

ولقد أدت كثير من الحركات الفكرية الى تغيرات اجتماعية واسعة مثل حركة النهضة الأوروبية ، وفلسفة الثورة الفرنسية ، وغيرها من الحركات الاجتماعية والسياسية والدينية.

كما أن الثقافة تعتبر عاملا للمنافسة الاجتماعية بما ينتج عنها من صراع فكري بين الفئات المختلفة في المجتمع مما يؤدي بالتالي الى حدوث تغير اجتماعي جديد.

وتنطوي تحت اطار العامل الثقافي اتجاهات عديدة يجمعها خيط واحد وهو قولها : أن العناصر الثقافي تتفاعل مع بعضها مؤدية الى التغير الثقافي، ولكنها تختلف حول الطريقة المؤدية اليه، غير أن الثقافة حقلا محوريا بينها.

ويمكن حصر الاتجاهات القائلة بالعامل الثقافي في التغير في ثلاثة اتجاهات رئيسية هي:

نظرية الانتشار الثقافي.

نظرية الارتباط الثقافي.

نظرية الصراع الثقافي.

وهي تركز على آليات التغير الثقافي ومصادرة، وهل هي داخلية أم خارجية ؟ وكيف يكون ذلك ؟

وسنعرض آراء هذه النظريات المتشابهة المختلفة على النحو التالي:

أولا : نظرية الانتشار الثقافي:

تنطلق النظرية الانتشارية من أن التغير الثقافي يرجع الى عامل الانتشار ، فالانتشار عملية تنتشر بموجبها سمات ثقافية من منطقة الى أخرى، والى أن تعم تلك السمات أنحاء العالم ، لا ن من سمات الثقافة الانتشار.

وتميز هذه النظرية بين انتقال التراث وانتشاره، فيعني الأول : الانتقال الثقافي عبر الأجيال (من جيل الى آخر) داخل المجتمع ، أما الثاني فهو يعني : انتقال سمات ثقافية من مجتمع الى آخر ، وبمعنى آخر أن التراث يعمل وفق عامل الزمن ، بينما الانتشار يعمل وفق عامل المكان.

وترجع هذه النظرية التغيرات التي تحدث في مجتمع ، انمار تأتي نتيجة استعارة سمات ثقافية من مجتمع ثان ، أي أن التغيرات الثقافية ترجع في مصدرها الى ثقافة أخرى.

انطلاقاً من ذلك تبني النظرية أفكارها على عامل الانتشار وهو كل الحالات لا يعني انتقال الأفراد وإنما انتقال السمات الثقافية. وقد جاء مصطلح الانتشار الثقافي في كتابات علماء الأنثروبولوجيا حيث ذهب تايلور في كتابة

(الثقافة البدائية) الى أن فكرة الانتشار الثقافي جاءت لتكشف عن سر التشابه لكثير من السمات والعناصر القافية في مجتمعات متباعدة عن بعضها مرجعا ذلك التشابه الى انتشار وانتقالها من مصدر واحد أو من عدد المصادر نتيجة للاتصال الثقافي بين تلك المجتمعات وقد تكون هجرة العنصر الثقافي كاملة أو جزئية.

وتعتمد عملية الانتشار على عامل الاختراع الذي يعتبر أصل الثقافة الجديدة ويؤدي في النهاية الى استمرارية بناء الثقافة وحفظها من الفناء وأما آليات الانتشار فهي متعددة منها : الهجرة والاستعمار والثورة وغيرها .ولا تخلو عملية الانتشار من وجود عوائق الأمر الذي يؤدي الى مقاومة الثقافة المستعمرة وإبطاء عملية التغير عموما.

ويبدو ذلك بوضوح حينما تترسخ عناصر ثقافية في مجتمع فانه في هذه الحالة يصعب إحلال عناصر جديدة لتأخذ مكانا في النسق القائم.

وفي كل الحالات يمكن ملاحظة العناصر المعوقة للانتشار، وهي تركز على انتقال الثقافة سواء عن طريق النقل أم الغزو أم الاستعارة متتبعة انتقال العناصر الثقافية عبر المكان وترى ان الهجرة تؤدي الى انتقال وحدات ثقافية كبيرة، وأما الاستعارة فتؤدي الى انتقال وحدات ثقافية بسيطة لا تحدث في البداية تغيرا يذكر في المجتمع الجديد.

ونظرا لسعة مجال الانتشار الثقافي وتعدد آلياته فقد وجدت مدارس مختلفة في أنحاء العالم ويمكن تمييز ثلاث مدارس هي:

1- **المدرسة الألمانية النمساوية:** بزعامة جرايبنر وهي تبين وجود سبع أو ثماني نماذج ثقافية اصليه في العالم ذات طابع منسجم ومستقل ثم انتشرت في أرجاء العالم بفعل عامل الانتشار وكان انتشار كل ثقافة أما جزئيا أو كليا. وتنظر الى دراسة الحياة البدائية باعتبارها مفتاحا لفهم الاتصال بين الثقافات المعاصرة.

2- **المدرسة الإنجليزية:** بزعامة اليوت سميث وبري، وهي تقول بمصدر واحد للثقافة وهي الحضارة المصرية التي عمت العالم الى ان جاءت الحضارة اليونانية وحلت مكانها.

3- **المدرسة الأمريكية:** بزعامة (الفرد كروبير، وبواس) وهي تهتم بالآثار المترتبة على عملية الانتشار الثقافي في المجتمعات، وقد حاولت هذه المدرسة تلافي النقص والأخطاء التي وقعت فيها المدرستان السابقتان من حيث انطلاقهما من بداية تجريبية متواضعة ومن فروض منتقاة....

تقييم :

يتبين من كل ما سبق أن النظرية الانتشارية تؤكد على الانتشار الثقافي بوصفه عاملاً للتغير الاجتماعي، وأدت الى الاهتمام من جديد بتاريخ الثقافة، ودراسة الروابط الثقافية بين المجتمعات.

إن هذه النظرية رغم أهميتها العلمية إلا أنها لا تخلو من النواقص التالية:

أولاً: ان التركيز على العامل الخارجي في عملية التغير الاجتماعي ينفي العوامل الداخلية التي تؤدي الى التغير، وإلغاء لفاعلية المجتمع وآليات التغير فيه، ويحرم المجتمع من الابتكار والاكتشاف، وهذا ينافي الحقيقة الواقعية، حيث أن القيم السائدة والأيدولوجيات وكل عناصر الثقافة تتفاعل وتؤدي بالتالي الى التغير.

ثانياً: إن عامل الإرادة في التعبير عاملاً مهماً في الوقت الذي يكون مهملاً لدى الانتشاريين.

ثالثاً: ومن جهة أخرى لم يفسر الانتشاريون كيف ولماذا تنتشر السمات الثقافية من مجتمع دون آخر والى مجتمع دون آخر ؟ الأمر الذي كان مهملاً عندهم كما أنهم لم يفسروا أسباب انتشار الثقافة

ولم ينتبه الانتشاريون الى عملية الثقافة، وهي عملية معقدة، في الوقت الذي ذهبوا فيه إلى الانتقال يكون ميكانيكياً، وفي ذلك تبسيط لعملية الانتقال والاستقبال الثقافي. كما أن النتائج التي توصلوا اليها لا تخدم نظرية عامة في التغير الثقافي .

ثانيا: نظرية الارتباط الثقافي :

تُرجع نظرية الارتباط الثقافي التغير الاجتماعي الى عوامل داخلية بالمجتمع، وهذا على عكس ما ذهبت اليه نظرية الانتشار الثقافي. كما أنها ترى أن التغير الاجتماعي يأتي من العناصر الكائنة في المجتمع وليس من خارجه.

ويمثل هذا الاتجاه العالِم(سوروكين) في كتابه(الديناميات الثقافية والاجتماعية) ويتفق سوروكين مع المؤرخين في أن هناك جوانب فريدة غير متكررة في التغير الاجتماعي.

ويرى (سوروكين) أن الاتجاه العام للتغير الاجتماعي يأخذ شكل التقدم المضطرد حتى يصل الى حد معين، ثم يحدث جمود، ثم نكوص الى حد معين، ثم يرتد التغير الثقافي الى الاتجاه المضاد الإيجابي.

وتقوم نظرية (سوروكين) في الارتباط الثقافي على مبدأين أساسيين هما:

1- مبدأ التغير الداخلي الموروث: ويقوم على حتمية التغير في المجتمع، وأن كل المجتمعات في تغير مستمر، حتى ولو بدت ثابتة من الخارج. وأن التغير يتم في شكل حلقات متصلة مترابطة تتأثر وتؤثر. ويؤكد أن تغير النظام الاجتماعي إنما يكون نتيجة لسلسلة من التغيرات التراكمية الموروثة التي تحدد مستقبل التغير.

2- مبدأ الحدية في التغير: ويقوم على حدية العلاقة السببية بين المتغيرات المترابطة في تحديد عملية التغير، وفي اطار الممكنات المختلفة للمتباينات الأساسية للأنظمة الاجتماعية. فالنظام الاقتصادي يتغير في ضوء المتباينات التالية: الصيد، الرعي، الزراعة، التجارة، الصناعة. فهذه المتباينات تتكرر عبر العصور دون أن تسير سيرا مستقيما. ويقرر سوروكين: أن الثقافة لا تفنى، وإنما تتحول أو تمتص لكنها لا تفنى.

تقييم نظرية الارتباط الثقافي (لسوروكين): أنه بسط من عملية التغير الثقافي وقصرها في عامل واحد من (داخل الثقافة) ذاتها، وهذا فيه إهمال لعامل مهم في التغير الثقافي إلا وهو عامل الانتشار الذي هو من أهم خصائص الثقافة.

ثالثا: نظرية الصراع الثقافي: (المتناقضات الثقافية)

تضم نظرية الصراع اتجاهات عديدة في تفسير التغير الاجتماعي، منها: الاتجاه الماركسي الكلاسيكي، والحديث، واتجاهات أخرى. ويجمعها(كون التناقض يؤدي الى الصراع الذي هو سبب التغير الاجتماعي.(

والصراع عملية اجتماعية، توجد بأوجه مختلفة في الحياة الاجتماعية، وأن المتناقضات الثقافية تنبع من داخل المجتمع، وأن إزالتها يؤدي الى تغيرات اجتماعية فيه.

ويكون حسم الصراع الثقافي : بإنهاء جانب من العناصر الثقافية لحساب عناصر أخرى، واستبدالها بعناصر جديدة، وإما بتنمية العنصر الغالب في الثقافة. وفي كلتا الحالتين يحدث التغير في ثقافة المجتمع.

وللصراع أنواع عدة منها :الصراع السياسي، والطبقي، والعرقي، والديني، والصناعي. وهناك الصراع على

مراكز القوة المختلفة للاستئثار بالسلطة أو الثروة أو المركز الاجتماعي.

وتفسر نظرية الصراع الثقافي التغير الاجتماعي بالرجوع للمتناقضات الثقافية داخل المجتمع، وكلما زادت المتناقضات أدى الى زيادة حدة الصراع، وبالتالي حدة التغير الاجتماعي، كما تذهب الى ذلك النظرية الماركسية. ويؤكد (رالف درندورف) أن هناك بعض الاختلافات بين أنواع الصراع الاجتماعي، فهناك صراعات ذات منشأ خارجي تكون مفروضة على المجتمع، كالحروب. وصراعات ذات منشأ داخلي، كالصراع الذي بين الأحزاب السياسية، والذي بين نقابات العمال وأرباب العمل، ولكل منها تحليله السوسيولوجي، وله أهميته المتباينة في إحداث التغير الاجتماعي.

وتر نظرية التناقضات الثقافية أن التوتر يزول بعد زوال علته المسببة له، أي أن النظام يعود الى حالة التوازن، لكن سرعان ما تظهر حالة من التناقضات تؤدي الى الصراع، وهكذا....، والتغير الاجتماعي يفسر بموجب طبيعة التناقضات الكائنة في المجتمع.

تقييم نظرية الصراع الثقافي:

أهملت وظيفة النسق السياسي والموقف العسكري والمنجزات التكنولوجية في إحداث التغير.

لا يمكن أن نرجع كل التغيرات الاجتماعية في المجتمع الى عامل واحد وهو حالة الصراع بين مختلف الفئات الاجتماعية.

هناك العديد من المجتمعات فيها تناقضات ثقافية ولم تؤدي الى صراع وتغير سلبي.